دفاع امرأة عن النساء

من الرجال

(٢)

وقد يقال ان الرجل اقدر من المرأة على سرد الحقائق والوقائع وان المرأة اقدر منهُ على قصّ القصص وسرد التفاصيل فلذلك فاقتهُ في كتابة التراجم اذ التفاصيل لا الحقائق هي المهمة في الترجمة. ولو ان الصحف تستخدم النساء مراسلات لها في الحرب لرأت من حسن بيانهنّ في وصف المعارك وسلامة دبلجتهنّ ما لا يرى في وصف المراسلين عادة ولكن يرجح انهنّ يتركن هنا وهناك بعض الامور المهمة التي لا غنى عنها في ادراك الوقائع

وهناك امر آخر لا بدّ من الانتباه لهُ قبل ابداء الرأي فيما كتب الكتّاب والكاتبات حتى الآن وهو ان عدداً كثيراً من الكتب التي كتبها النساء لم ينشر. والسبب في ذلك ان الرجال بقوا حتى الزمان الاخير ينظرون الى كتابة المرأة بعين المهانة والاحتقار حتى اضطرّت شهيرات الكاتبات ان ينتحلن اسماء الرجال مثل جورج سند وجورج اليوت . على ان كاتبات الروايات تغلبن على هذا الغرض الاعمى من حيث كتابة الروايات فقط فاذا طرقت كاتبة غير هذا الباب كأن حاولت الايغال في دائرة الادب والانشاء العالي مثلاً فلا بدّ ان تلقى مصاعب لا تذلّل بسهولة

والمرأة تخالف الرجل في ان فضائلها الاولية لا تأخذ في النقصان متى بلغت طوراً معلوماً من الحضارة مثلهُ . فالمرأة العالية التربية اكثر حنانا وحبّا من المرأة غير المتعلمة التي كأنها كتلة جامدة من الغرائز الاولية وهي كذلك اقرب الى العطف والنجدة من الرجل السامي التربية والتهذيب. واذا كانت زوجة استخدمت كلّ مواهبها العالية وذوقها الفنيّ في سبيل علاقتها الزوجية واحبّت زوجها حباً جمّاً لا تعرفهُ المرأة التي على فطرتها الاولى والتي انما يهمّها الرجل لانهُ قرين لها . كذلك يبدو تفوقها في حال امومتها . فان اعظم كتّاب التراجم امرأة اشتهرت في حالة امومتها اريد بها مدام دي سفينيه فان كونها امّاً هو الذي رفع كتابتها الى الطبقة التي نعرفها وصيّر صفحاتها خالدة لا تنسى

والامومة فنٌّ بعيد عن مثال الذهن المادي الضعيف الخيال الذي لا يرى في الطفولة جمالاً ولا يشترك في شيء من مطامح الشباب . وليست احسن الامهات بالضرورة المرأة التي تبالغ في العناية بطفلها بعد ولادته وتقضي الساعات الطوال وهي تهتم لهُ لينام وتعلم بالضبط متى نبتت سنّهُ الاولى اذ الغالب ان امثال هذا وصفها تفقد اهتمامها به بزوال هذه المظاهر فاذا بلغ الدور الذي تشتدّ حاجتهُ فيه الى المساعدة والحنان لم يجدها . وكما ان القطة لا تعرف جروها ولا الفرس فلوها بعدما يشبان عن الطوق كذلك الامهات اللواتي تنعّمن غالباً بالطيبات ينكشفن عن اولادهنّ متى اصبحوا وهم ليسوا في حاجة الى عنايتهن المادية . وامهات مثل هؤلاء هنّ اللواتي نسمع بناتهنّ يتململن منهنّ حتى لتقول البنت « آه من امي انها لا تفهم » . وكثيراً ما نرى ايضاً ان امثال هؤلاء « الامهات الطيبات » فاقدات عاطفتي الحب والحنان نحو كل الاولاد غير اولادهن . والحق يقال ان محبة الاولاد ليست اقرب الى فطرة المرأة منها الى فطرة الرجل . فان عاطفة الابوة شديدة في كثير من الرجال . وقد لحظت على الدوام ان النساء اللواتي يعربن عن كره الاولاد هنّ من النساء الفطريات الضعيفات العقول

وخلاصة ما تقدم ان التهذيب والتمدن الزم للمرأة منهما للرجل . والمرأة التي قنعت بالبقاء على الفطرة الاولى قصرت عن ادراك الشأو الارفع الذي قدّر لها . ولقد صدق سدني سمث حيث قال سنة ١٨١٠ « قد ينجو الرجل غير المتعلم من الانحطاط العقلي اما المرأة غير المتعلمة فلا تستطيع النجاة منهُ . فاذا لم تتعلم في مدارس التربية والتعليم فلن تتعلم في مدرسة تجارب الدهر واحواله »

المرأة الفطرية

المرأة الفطرية على ثلاثة اصناف :

الاول المرأة التي لا همّ لها الاّ قضاء حاجات الرجل ونسله . فاذا استثنينا ذلك فلا شأن لها البتة . وقد كان العالم في حاجة الى نساء هذه صفتهنّ وسيبقى محتاجاً اليهنّ على الدوام ولكن ما دمن قانعات بان يكون عملهنّ الطبخ والغسل والخياطة وحمل الاولاد واطعامهم من غير ان يكون لعقولهنّ واذواقهنّ شأن في تلك الواجبات والاعمال او من غير ان يسعين في ترقية عقولهن فلا مناص لهن من البقاء على قيد العبودية

والصنف الثاني وهو شرّ الثلاثة المرأة التي تتلاعب باهواء الرجال وتعيش باستخدام اعظم قوى العالم اريد بها قوتها كامرأة . وهي إما ان تكون من بنات الهوى وشأنهن معروف واما ان يكون سلوكها لاشية عليهِ ولكنها انما تعيش لتكون موضع اعجاب الرجل بها وليس لها عيشة مستقلة او عيشة عقلية خاصة بها

والثالث المرأة المتزجلة او الرجل الصغير كما اسميها . ونساء هذا النوع على ازدياد كلّ يوم وعملهنّ منافسة الرجل في جدهِ ولعبهِ في عمله وطوره . ولست اجهل ان لا غنى للمرأة عن الرياضة البدنية ولكن اذا امتدّ بها الامر حتى صارت هذه الرياضة غاية وجودها الوحيدة اي متى كانت المرأة انما تعيش للصيد والقنص ولعب الجولف او غيره من الالعاب المبنية على قوة البدن فانها تخرج بذلك عن طور المرأة ولا يمكن انَ تكون الاّ رجلاً صغيراً . واول ما يخطر ببال من يجتمع بامرأة مثل هذه ان يأسف لكونها خلقت امرأة ذلك لان ظواهرها كلها تدلّ على انها تفضل لو خلقت رجلاً . وكثيرات من نساء هذا الصنف يقلن لك هذا القول بصراحة

والمرأة الفطرية باصنافها الثلاثة تمتاز عن المرأة التي نالت القسط الاوفر من المدنية بشيء واحد وهو ان الرجل يحيط بافقها من كل جانب اي انها تابعة لهُ في كل عمل تعملهُ ولا تهتمّ اهتماماً خاصًّا بالعالم المحيط بها ولا تعنى بترقية شخصيتها . وعليهِ كانت المرأة الفطرية ادنى من الرجل . وقد فضّل الرجل على الدوام المرأة الفطرية على المرأة العالية الكعب في المدنية وخصوصاً المرأة من الصنف الاول اي المستكينة غير المفكرة هذا من الوجهة النظرية ولكنهُ من الوجهة العملية قدّم الثانية عليها الى ان ادركتهُ السآمة فجعل يتنقل بين الصنفين دواليك

وواقع الامر انهُ اذا عُرضت مسئلة المرأة فان الرجل لا يعلم ما يريد . فهو يستطيع اختيار فرس او كلب او اتومبيل يطابق ذوقهُ ولكنهُ لا يستطيع اختيار امرأة . واذا اختار امرأة ففي تسع حالات من عشر يندم على هذا الاختيار . يختار امرأة من الصنف الاول ثم لا تمضي سنة على اختياره هذا حتى يضجر منها فيعود باخرى من الصنف الثاني حتى اذا قضى لبانتهُ وركدت ريح هواهُ نبذها ظهريًّا

اقاويل الرجل عن المرأة

يتقول الرجل الاقاويل الكثيرة في المرأة وينبزها عاشاة من الالقاب. وهذه الالقاب قد تصح على المرأة الفطرية دون غيرها. واهمها الحسد والصلف والثرثرة والطيش والعبث والحمق والصخب والتبذل. فلنبحث في كل تهمة من هذه التهم على حدة:

واولها واهمها حسدها لبنات جنسها. قال شوبنهوره ان النساء ينظر بعضهن الى بعض حتى وهن مارات في الشوارع نظره الجويلف والجبلين »(١). وهذا القول يصح على المرأة الفطرية كل الصحة فان عداءها لبنات جنسها شر صفاتها واظهر خصائصها. لكن هذه الحالة هي نتيجة الاحوال الفطرية اي انها نتيجة تلك الغريزة الفطرية غريزة حب البقاء وقد ورثتها عن اسلافها. فان المرأة في العصر الحجري كانت اذا رأت اخرى تحاول اكتساب قلب رفيقها عرفت انها مهددة بالافتراض والفناء. ولم يكن في الكهف مكان للنساء زائدات على الحاجة فانتصار خصيمتها عليها لا بد ان يفضي الى احد امرين إما قتلها واما زيادة حملها في دركات العبودية

اما الرجل فلم يكن له من البواعث على حسد الرجال ما كان للمرأة على حسد النساء. فكان اذا رأى رجلاً ينازل رفيقته حُسمت المنافسة بينهما بالنهايت على باب الكهف. ولا تزال المبارزة حتى الآن محسوبة في بعض البلدان طريقة شرعية يلجأ اليها الرجل دفاعاً عن نفسه. اما المرأة فلم يسمح لها بمثل ذلك فتعلم لسانها وهو سلاحها الوحيد ان يحل محل الادوات المختلفة التي استعملها الرجل في الدفاع عن نفسه من الصوان الى النبوت فالخنجر فالسيف فالمدفع

ولكن يلاحظ هنا انه كلما تقدمت المرأة عقلياً او أبعدت عن المحيط الفطري جعل عداؤها لبنات جنسها يقل من شدته. فان علاقات الوداد بين البنات في مدارسهن مثلها بين الصبيان في مدارسهم. والبنت الجميلة بينهن موضع اعجابهن بها لا حسدهن منها في الغالب. وعليه فاذا كان بين النساء تحاسد يفوق تحاسد الرجال فذلك يكون في الاكثر حيث الاحوال المحيطة بهن على الفطرة

(١) حزبان سياسيان في انجلترا اشتهرا في القرن الثاني عشر باحقادهما كل منهما للآخر حتى ضرب بهما المثل كما ضرب المثل عند العرب بعداء بكر وتغلب

الاولى كما في الهند مثلاً. فان النساء هناك تعزل عن كلّ رابطة عقلية او اجتماعية حتى ان الروابط البيتية واهنة لان اولادهنّ يؤخذون منهنّ وكأن لا وجود لهنّ الاّ تابعات لرجالهنّ . ففي وسط مثل هذا تنتعش غرائزهنّ الفكرية ويشتدّ تحاسدهنّ . وكلّ جمعية توجد فيها المرأة لاجتذاب انظار الرجال ولا يكون لها وجود مستقلّ تنتعش هذه الغرائز فيها ولو كانت في قلب لندن . قال لابرويير « ان الرجال هم السبب في كون النساء لا يحببنّ بعضهنّ بعضاً » . وحيث لا يجد النساء شيئاً يفكّرنّ فيه غير الرجال وحيث يكرن جمالهنّ الطبيعي موضع اعجاب الرجال بهنّ لا غير فانهنّ يبقين على هذا التحاسد ابد الدهر

الصلف — اذا كانت المرأة ذات صلف اي غرور وزهو وتيه فما ذلك الاّ لانها تعلم ان جمالها هو اعظم ما يحمل الرجل على التملق بها

الطيش — اذا كانت طائشة فذلك لان الرجل لم يكلفها البتة ان تفكر لنفسها ولم تمرن عقلها على المنطق والرياضيات

الثرثرة — اذا كانت ثرثارة فما ذلك الاّ لانها لم تتعلم كيف تستعمل قوة البيان المذخورة فيها

واذا كانت ذات عبث وحمقاء وصخابة فسبب ذلك ضيق مدى نظرها الى الحياة وقلة وجود مصلحتها

وبقيت مسئلة اتهامها بالتبذّل وهي مسئلة كبيرة اذ طالما صوبت سهام الملام والتعنيف اليها بدعوى عدم تحصنها وعدم محافظتها على كرامة نفسها . اما انا لم استطع الاهتداء الى فرق جوهري بين الرجل والمرأة من هذا القبيل . والفرق كلهُ اصطلاحيّ متعلق بالرسوم والقوانين والرجل اكثر استمساكاً بالرسوم من المرأة وهذا طبيعيّ لان الصبيان يخرجون بالمئات كل سنة من مدارس قليلة تكاد انظمتها تكون واحدة واما البنات فيربين على ايدي معلمات خصوصيات او في مدارس خصوصية صغيرة وهي كثيرة متعددة الانظمة والاقيسة الادبية والاجتماعية

واعتقادي الشخصي ان المرأة ليست بالفطرة اقلّ غيرة على شرفها من الرجل على شرفه وعليه فان ما تركب من الدناءة يردّ الى طريقة تربيتها وما فيها من الغوضى والى ضيق افقها العقلي

(متأدبة)